الفصل الرابع

ديل أولاد حشاك لا ارتزاق لا زيف!

في هذا الفصل تتداخل رواياتنا بين مناشط عديدة.

فحركة السيد الصادق بالخارج كان بعضها سياسي حركي، وبعضها فكري، وبعضها دبلوماسي، ولكن أهم ما في الفصل روايتنا للانتفاضة المسلحة في ٢ يوليو ١٩٧٦م، والمأخوذة نقلاً عن كتاب المصالحة الوطنية الصادر عام ١٩٧٨م. تلك الحركة التي كان قوامها الأكبر المهاجرين من الأنصار وهم جماعة فذة من زهاد الدنيا قصاد الآخرة، استقوا من راتب الإمام المهدي عليه السلام روحاً فدائية مسبلة (في شأن الله)، ومن تاريخهم استبسالاً (في شأن الوطن).. هؤلاء الزهاد العباد أطلق عليهم السفاح وإعلامه لخاطيء لفظ (المرتزقة)، لذا فنحن نقتبس من رائعة الشريف زين العابدين الهندي بيتاً يلقم الكاذب حجراً: ديل أولاد حشاك..لا ارتزاق لا زيف!

ولنواصل سردنا لرحلة الصادق، في مواجهة سعالي الخرطوم.

قلنا إنه ثارت عليه بنت المعدة، وقال طبيبه بضرورة سفره للخارج للعلاج، فتم إطلاق سراحه.

وفي ٢٤ أبريل ١٩٧٤م، بعد الخروج من الاعتقال مباشرة، سافر السيد الصادق المهدي إلى لندن مستشفياً وكانت بصحبته أمي رحمة ومريم أختي[1].

هناك قابل السيدين حسين الهندي، وعمر نور الدائم وتفاكروا حول الموقف، واتفقوا أن يتم اجتماع مع القيادة الليبية التي أرسلت وفداً للحوار مكونا من السادة: أبو زيد دردة، صالح الدروقي، وبشير سعد وآخرين.

ونحن ننقل الآن من كتاب المصالحة:

---

(١) كتب ذلك في دفتر اليوميات: سفري والوالدة ومريم للندن

(انعقد اجتماع تم الاتفاق فيه على الآتي:

(أ) ليبيا تساعد الجبهة السودانية في نشاطها المعارض للنظام السوداني على أن تقرر الجبهة السودانية وسائل المعارضة ولا تدخل ليبيا طرفاً مباشراً،

(ب) مبادئ المعارضة السودانية مبادئ عربية إسلامية اشتراكية وهدفها أن تحقق الوحدة العربية وتكون العلاقة بين السودان وليبيا داخل إطار ميثاق الجبهة السودانية،

(ج) الخطوات الوحدوية المحددة يقررها الشعب السوداني باستفتاءات حرة، وتلتزم الجبهة السودانية بمناشدة الشعب السوداني أن يقبل بإرادته الحرة الوحدة العربية، وأن يطرح للشعبين السوداني والليبي نوع الوحدة ومراحلها لاتخاذ قرار شعبي حر لا فوقي مفروض.

(د) أن تساعد ليبيا في تدريب وتسليح قوات المعارضة السودانية[1].

وبعد الاجتماع تقرر انتداب السيد حسين الهندي ليكون حلقة الوصل بين الجبهة السودانية والقيادة الليبية).

وفي لندن أيضاً قابل السيد الصادق السيد غراهام توماس الذي قال إنه اتصل به في وقت متأخر من ليلة السبت ٢٧ أبريل ١٩٧٤م (لمقابلته غداً)، ووصف غراهام اللقاء بقوله: (تحدثنا لسبع ساعات، حاولت جهدي أثناءها أن أقنعه بوجوب تفاهمه مع نميري. والحقيقة أنني رجوت نميري بذلك الخصوص كما رجوت وزراءه أيضاً، وطلبت إجراء مصالحة. كان الصادق الآن قد نضج، ولم يكن يحمل مرارة أو شعوراً بالحقد حول احتجازه في مصر أولاً ثم في السودان طيلة حوالي خمس سنوات دون محاكمة، بل دون توجيه تهمة أياً كانت، وكان مقتنعاً أن نظام نميري يتحطم، وهذا ما شككت فيه في ذلك الوقت). [2]

يبدو أن حسابات السيد غراهام كانت تحتاج لترتيب.. النميري ذبح نحو ألف من

(١) كل هذه التفاصيل والتي سترد لاحقا مأخوذة من كتاب المصالحة الوطنية الذي صدر عام ١٩٧٨م ونشرته صحيفة الرأي العام في سنة ٢٠٠٠ في حلقات

(٢) توماس، مرجع سابق، ص ١٥٢

الأنصار في أبا وودنوباوي والكرمك على رأسهم الإمام الهادي، هذا طبعاً يفوق مرارة الاعتقال، حتى أن السيد الصادق حينما تحدث عن فكرة الانتفاضة المسلحة لاحقاً ذكر أن النميري أوقف كل منافذ العمل السياسي والحريات بعد انتفاضة شعبان، كما أنه لاحت فرصة للانتقام مما حدث في الجزيرة أبا،[1] مرارة حبسه لم تكن ضمن الحسابات وما كان الصادق ممن يحمل المرارات الشخصية في الشأن العام.. وحتى بالنسبة لمجزرة الأنصار، فإن مطالب الأنصار لم تكن انتقامية بقدر ما هي عدالية لأنه وكما يقول المثل (الفش غبينتو خرب مدينتو).. لكن أحلام المصالحة التي حملها السيد غراهام يومها ما كان لها أن تتحقق مع صلف النظام وجبروته واستهانته بالأنصار والمعارضة عموماً. وكانت خطى جبهة المعارضة حثيثة نحو الانتفاضة المسلحة.

أحاديث الغربة ومحاضرة كانتربري

صدر للحبيب الصادق في هذه الفترة كتاب «أحاديث الغربة» وهو كتاب صغير الحجم مكون من مجموعة محاضرات ألقاها في جامعات بريطانية، وبحسب الناشر فقد «قوبلت باهتمام بالغ من الذين تابعوها أو استمعوا إليها وهم في معظمهم من جمهرة من المفكرين والأكاديميين والمستشرقين وطلاب العلم»، حيث «مارس الصادق المهدي رياضة فكرية في رحاب جامعات بريطانية عريقة، واستعاد ذكريات أيام الدراسة في جامعة أوكسفورد التي تعتز بأنه واحد من خريجيها. ونلاحظ أن الخط البياني للصادق المهدي في المحاضرات يبدأ بالإسلام والبعث الإسلامي وينتهي بالأمر نفسه مروراً بالقضايا الراهنة التي أصبحت مترابطة بشكل لا مثيل له وهي: الثورة والعروبة والنفط وأفريقيا وروح العصر.

أحاديث الغربة عبارة عن ثلاث من المحاضرات التي ألقاها الصادق المهدي خلال صيف ١٩٧٥م وهي بالترتيب: الفكر الإسلامي والدولة الحديثة[2]، والثورة العربية المعاصرة[3]، وآفاق عربية إفريقية[4]، ومحاضرة رابعة ألقاها في جامعة أوكسفورد في

(١) شاهد على العصر مع الإمام الصادق المهدي، الحلقة الحادية عشر، بث في ٤ أكتوبر ٢٠١٥م

(٢) ألقيت هذه المحاضرة في يوليو ١٩٧٥م في مؤتمر جمعيات الطلاب المسلمين في جامعة مانشستر.

(٣) ألقيت هذه المحاضرة بدعوة من الجمعية العربية في جامعة درهام يوم ١٣ أكتوبر ١٩٧٥م

(٤) ألقيت هذه المحاضرة في سمنار في كلية سانت أنتوني بجامعة أوكسفرد في نوفمبر ١٩٧٥م

مارس ١٩٧٦م»[١].

وفي ذلك الوقت كذلك شارك بإلقاء محاضرة عن الإسلام في مؤتمر للأديان عقد بمدينة كانتربري المسيحية التي تمثل عاصمة البروتستنتية مثلما الفاتيكان عاصمة الكاثوليكية، حيث تحدث مترافعاً عن أن الإسلام هو الأجدى بالمرتبة الأولى في التنافس بين الأديان، ففي الجزء الأول من المحاضرة قدم تصوراً لمشاكل الإنسانية في عالم اليوم، وفي الجزء الثاني من المحاضرة تعرض لحلها من منظور إسلامي. قال رئيس الجلسة: (أنا أوافق على البيان المذكور في الجزء الأول من المحاضرة، وعلى المشاركين في المؤتمر، وقد كانوا يمثلون كل الأديان العالمية: المسيحية، واليهودية، والبوذية، والهندوسية.. إلخ، أن يقدموا من مرجعياتهم الدينية الحلول ما استطاعوا). كانت هذه المحاضرة نصرة للإسلام في محفل للمقارنة بين الأديان.

والتعليق الذي يحضرني هنا، هو ما درج بعض شانئي السيد الصادق على ذكره من أنه كان (يحضّر) الماجستير في جامعة أوكسفرد. فهذه الفترة التي قيل إنه عكف فيها على الدراسة فوق الجامعية كانت في الحقيقة فترة للعمل السياسي والدبلوماسي والفكري، فكان يزور الجامعات البريطانية كمانشستر ودرهام وأوكسفرد، محاضراً وليس طالباً للماجستير كما توهموا. وقد نال درجة الماجستير بشكل تلقائي بعد عامين من تخرجه كما ذكرنا.

محاولة اغتيال رابعة

وفي هذه الفترة تعرض للاغتيال للمرة الرابعة في العهد المايوي[٢]، قال: *(أثناء وجودي في بريطانيا منفياً قرر رئيس النظام تصفيتي، ولكن مدير الأمن العام آنذاك علي نميري اعترض بأن الاغتيال السياسي إذا دخل الساحة السودانية سوف يصبح تقليداً، ثم أسند النظام الأمر لأيدٍ أجنبية ووصلنا الخبر كما وصل لسلطات الأمن البريطانية*

(١) مقدمة الناشر (دار لقضايا) في: الصادق المهدي أحاديث الغربة دار القضايا، بيروت، نوفمبر ١٩٧٦م. المحاضرة الرابعة بعنوان (قضايا العصرية والهوية) وقد ألقيت في مركز دراسات الشرق الأوسط بجامعة أوكسفرد. والملاحظ أن المحاضرات التي ألقيت في ١٩٧٥م لم تكن إلا واحدة منها في فصل الصيف.

(٢) المرات الثلاث مذكورات آنفا، الأولى يوم الانقلاب، ومرتان بعد الاعتقال في جبيت.

فاتخذت إجراءاً وقائياً وأرسلت ضابطاً ليقيم معي في منزلي للحراسة).

من مدونات ١٩٧٥

وقد تنقل السيد الصادق في تلك الفترة بين العواصم، وهذه هي الفترة كان الصادق يغشى القاهرة في غدوه ورواحه كما لاحظ الصحفي المصري الأستاذ يوسف الشريف: (الصادق المهدي كان قد وقع في هوى مصر خلال إقامته في أكاديمية الشرطة حيث عقد صداقات حميمة مع الضباط والجنود والمعلمين والمدرسين.. وجرت بينه وبينهم حوارات طويلة وعميقة و مثيرة حول مصر وأوضاعها الاجتماعية وحول علاقة مصر والمصريين بالسودان والسودانيين وحتى أصبح تردده على القاهرة قادماً من لندن وبالعكس كما لو أنها رحلة الشتاء والصيف)[1]. وفي السنوات الأربعة التي ظل فيها في الخارج (١٩٧٤-١٩٧٨م) كان يحرص أن يلاقينا في الإجازات في مصر «في رحلة الصيف».. لكنه بعد كامب ديفيد قاطع القاهرة فصرنا نبحث عن موئل آخر كما سوف نفصل لاحقاً.

ونجد في مفكرة العام ١٩٧٥م تدوينه في يوم الأربعاء ١٥ يناير للتالي: *(وصولي والوالدة إلى مصر حيث سكنا في ١٥ أبو الفدا، تلفون ٨١٥٩٩٥).*

وفي يوم الأحد ١٩ يناير ١٩٧٥م: *(وصول حفية من جدة حيث وصلت من السودان يوم الجمعة).*

في تلك الفترة كانت امي سارا نفساء حيث ولدت محمد أحمد في ٢٤ ديسمبر ١٩٧٤م، وكانت قد ولدتني في ٢٨ ديسمبر قبلها بسبع سنوات. علق أحدهم مازحاً: قدرما حاولتي أن تلدي طفلاً في يوم السيد الصادق فشلت، فالسيد الصادق كما ذكرنا من مواليد ٢٥ ديسمبر!

اتجه الحبيب الصادق بعد ذلك للسعودية للعزاء في الملك فيصل، وكتب في يوم الأحد ٣٠ مارس التالي:

(قابلنا بالرياض الشيخ محمد أحمد النعمان وذلك أثناء زيارتنا للعزاء في الملك

(١) يوسف الشريف – الوطن المصرية ٢٧/ ٨/ ٨٩

فيصل، حيث لقينا الملك خالد واجتمع بنا الأمير فهد ثم لقينا أبناء الملك فيصل..الخ. وفي لقاء النعمان ذكر قصة واستشهد بهذه الأبيات التي ألفها محمد محمود الزبيري شاعر اليمن:

قضيت عمرك ملدوغا وها أنذا ... أرى بحضنك ثعبانا تربيه
تشكو له ما تلاقي وهو منبعث ... الشكوى وأصل البلا فيما تلاقيه
لا عنقك الراكع المذبوح يشبعه ... بطشا، ولا دمك المسفوح يرويه
أحلى أمانيه في الدنيا دموعك تج ... ريها ورأسك تحت النير تحنيه
وجرحك الفاغر الملسوع يحقنه ... سماً .. ويعطيه طبا لا يداويه
فلا تضع عُمُر الأجيال في ضعة ... الشكوى ويكفيك ماضيه، ويكفيه

عاد السيد الصادق للقاهرة في يوم الأربعاء ٢ أبريل ١٩٧٥م. وأجرى عددا من اللقاءات منها لقاء المرحوم د. عبد الحميد صالح في ٩ أبريل، ثم سافر لطرابلس في يوم الجمعة ١١ أبريل.

وتروي الأجندة بعد أنه تنقل بين القاهرة والرياض وطرابلس، ولندن وروما في ذلك العام.

ميثاق الجبهة الوطنية

كانت جبهة المعارضة قد تكونت منذ وقت باكر كما روينا، ثم تمت مداولات بينها وبين ليبيا للوصول لاتفاق معين حول أسس التعاون بينهما وقد أبرم ممثلو المعارضة بالخارج اتفاقاً في نوفمبر ١٩٧٣م، ولكن ذلك الاتفاق تعثر لرفض حزب الأمة في الداخل بقيادة السيد الصادق المهدي الشروط المملاة في الاتفاق والتي تجعل على الشعب السوداني الدخول في وحدة مع ليبيا إذا تحقق النصر.

ولكن بعد خروج السيد الصادق في أبريل ١٩٧٤م تم تفاوض جديد مع القادة الليبيين أشرنا له، أمن على أن مباديء المعارضة السودانية إسلامية عربية وتسعى للوحدة العربية وأن (الخطوات الوحدوية المحددة يقررها الشعب السوداني باستفتاءات حرة، وتلتزم الجبهة السودانية بمناشدة الشعب السوداني أن يقبل بإرادته

الحرة الوحدة العربية، وأن يطرح للشعبين السوداني والليبي نوع الوحدة ومراحلها لاتخاذ قرار شعبي حر لا فوقي مفروض).

حتى ذلك الوقت كانت الوثائق والأدبيات تشير لجبهة المعارضة أو المعارضة فلم تكن قد تأسست باسم (الجبهة الوطنية) وهو الاسم الذي صار يعرف به تحالف المعارضة فيما بعد. وحينما خرج السيد الصادق عمل على إكمال مأسسة المعارضة ووضع ميثاق وهيكل لإدارتها بشكل مؤسسي.

جاء في كتاب المصالحة الوطنية حول تلك المجهودات التالي:

(وبعد العديد من الاتصالات والمداولات تم الاتفاق على ميثاق الجبهة الوطنية في يناير ١٩٧٦ م، حينما جمع السيد الصادق المهدي المكتب السياسي للجبهة الوطنية وعرض عليهم المسودة النهائية للميثاق الوطني للجبهة الوطنية، وأوراق العمل المرفقة بالميثاق لدراستها وإقرارها، وكان قد أعد مشروع الميثاق بعد أن تداولته أطراف الجبهة لمدة عامين، كما أعد أوراق العمل التي شاركت في تحضيرها لجان متخصصة. فناقش المكتب السياسي المسودات المقدمة له عبر جلسات عديدة وأجازها وصدر كتيب يحمل نص الميثاق وخلاصة الميثاق:

(أ) تصفية الاستبداد في السودان.

(ب) توحيد الإرادة السياسية السودانية في تنظيم سياسي شعبي ديمقراطي اختياري جامع.

(ج) الالتزام بالإسلام وتنظيم الحياة الخاصة والعامة بموجب إرشاداته وشرائعه.

(د) توفير الحريات العامة والحقوق الديمقراطية للمواطنين في ظل التنظيم السياسي الجامع.

(ه) نظام اقتصادي اشتراكي.

(و) إصلاح تربوي تعليمي.

(ز) تحرير المرأة واستنهاضها.

(ح) دعم القوات المسلحة ومشاركتها في المسيرة السياسية للبلاد.

(ط) الحكم الذاتي الإقليمي للجنوب.

(ي) مشاركة أبناء الأقاليم في كل مستويات الأداء مشاركة عادلة وإعادة النظر في برامج التنمية والخدمات لإنصاف الأقاليم وتحقيق حكم لا مركزي فعال.

(ك) سياسة خارجية عربية وحدوية وأفريقية تحررية ودور للسودان واصل بين العروبة وأفريقيا وتوازن في العلاقات مع الدول الكبرى.

واشتملت أوراق العمل علي المواضيع التالية:

أ) كيفية تصفية الاستبداد.

ب) كيفية التطبيق العصري للإسلام.

ج) النظام الاقتصادي الاشتراكي المنشود.

د) النظام السياسي الجديد.

ه) الإصلاح التربوي المطلوب.

و) استنهاض المرأة.

ز) الإصلاح الإداري.

ح) الإصلاح الإقليمي.

ط) الإصلاح الجنوبي.

ي) برنامج السياسة الخارجية الجديدة.)[1]

الهجرة إلى ليبيا[2]

ذكرنا آنفاً وضع الأنصار غير المريح في المعسكرات بأثيوبيا، وكيف تقرر أن ينقلوا

(١) كتاب المصالحة الوطنية (بتصرف)

(٢) هذه الفقرة تم تحريرها بناء على: كتاب المصالحة الوطنية، مقال (الهجرة الفدائية للإمام الصادق المهدي ١٩٩٩م، والحلقة التوثيقية مع المهاجرين في ٢٠٠٨م)

منها في هجرة جديدة إلى ليبيا.

هذه الهجرة تمت (بتدقيس) الغول النائم بعين مفتوحة، والسير على أوصاله! هجرة من أثيوبيا إلى ليبيا عبر الأراضي السودانية، رغم كل أجهزة الأمن!!

منذ عقد الاتفاق مع ليبيا في مايو ١٩٧٤م بدأ مشروع ترحيل جزء مختار من المهاجرين من أثيوبيا عبر السودان لاستلام الأسلحة الليبية وللاستفادة من التدريب على يد مدربين ليبيين.

ومنذ أواخر عام ١٩٧٤م قام معسكر مسلح في ليبيا قوامه الأنصار الذين هاجروا في الأصل إلى أثيوبيا. وكان المشرف المباشر على حركة المعسكرات السيد حسين الهندي يعاونه السيد أحمد سعد ثم يعاونه السيد الصادق يعقوب أبو نفيسة وكان الجميع يعملون تحت قيادة الأنصار يباشرها السيد الصادق المهدي.

لعب كل من الهندي وأحمد سعد عمر وعمر نور الدائم دوراً أساسياً في نقل المهاجرين من أثيوبيا لليبيا.

في ليبيا بدأت معسكرات جدية.

الأنصار المهاجرون لم ينقلوا كلهم بل تم اختيار أفضلهم، وتم ترحيلهم من أثيوبيا لليبيا براً حتى ليبيا، وكانت رحلة صعبة جداً. من المشرفين عليها الحبيب محمد علي جقومي والمرحوم إبراهيم عمر الذي شنق بعد انتفاضة يوليو ١٩٧٦م.

نظمت الهجرة من إثيوبيا لليبيا بكفاءة عالية. أول دفعة ذهبت لليبيا من الحبشة استغلت الجمال، ووصلت ليبيا وتدربت على السلاح وكانوا ٢٥، وحملوا سلاحاً معهم وعادوا للمعسرات بأثيوبيا ودربوا المهاجرين بأثيوبيا على استخدام الأسلحة.

كانت هذه المجموعة الأولى بقيادة الحبيب عبد الرحمن محمد علي (جقومي) وكان كما ذكرنا مسئولاً من تنظيم الهجرة عبر الأراضي السودانية، بتحضير أفواج المهاجرين، وشحن المهاجرين في العربات في نقاط متفق عليها، وتحضير العربات، ومواعيد التحرك، وأماكن (التخزين) للمهاجرين في الخيران، وتزويدهم بالماء والطعام. وكانت العربات المستخدمة من ليبيا، وكانت الرحلة تمتد من يومين إلى ثلاثة أيام.

كانت الأفواج في البداية ٢٥ فرداً للفوج، وفي النهاية زادت الأعداد حتى وصلت مائة شخص للفوج الواحد.

التفويج من الحبشة كان يتم بالأرجل حتى دوكة (جنوب القضارف)، ومن هناك بالعربات حتى القضارف، ومن القضارف عبر القطار حتى نيالا، ومن نيالا عبر العربات حتى الفاشر، ومن الفاشر عبر العربات حتى مليط، ومنها بالأرجل ليلاً، ويمشون شمالاً مسافة طويلة جداً، وفي وادي شمال مليط تلحق بهم عربات الكومر وتشحنهم وتحملهم حتى ليبيا للعوينات على الحدود السودانية، ومنها للكفرة، ثم للمعسكر خارج الكفرة مسافة ٧٥ كيلو منها.. وكان هذا هو المعسكر الأول للأنصار، وبعد ذلك تحركوا لمعسكر (الروبيان). هذا المعسكر كان كله أنصار.

بعد ذلك تحول المهاجرون لمعسكر (٢٧ أبريل) خارج طرابلس. وفي هذا المعسكر كان هناك حوالي ١٢٠٠ من الأنصار، وحوالي عشرة من الأخوان المسلمون. أي حوالي ٠.٨٪.

ولكن القيادي الأخواني إبراهيم السنوسي كتب قبل بضع سنوات متهماً قيادة الأنصار بأنها لم تعطهم القيادة وهم أولى بها!! حقاً إنها مساخر!

تم تدريب الأنصار هناك على أنواع التدريب المختلفة: المدرعات، الأسلحة المتوسطة (الثقيلة بتعريف المهاجرين) ١٠٦ وم ط المضاد للطيران (أول مرة يدخلان السودان)، والأسلحة الخفيفة: الرشاشات جيم٣، الكلاشنكوف، وغيرها.

والملاحظ حول أداء المهاجرين الأنصار في المعسكرات أنه كان مذهلاً، وغالبيتهم كانوا غير متعلمين، يقول عن ذلك السيد الصادق: (*وعندما انخرطوا في التدريب العسكري كان استيعابهم للتدريب أعلى من تعليمهم لأن العزيمة وقوة الإرادة وصدق الإيمان جعل استيعابهم للأسلحة وللتنظيم العسكري وللتدريب متفوقاً. كانوا يحفظون تفاصيل الأسلحة كما يحفظ «الحوار» لوحه، ويؤدون تدريباتهم كمن يؤدي واجباته العبادية. قال لي مدربوهم في ليبيا: لقد دربنا كثيراً من المناضلين. لم نشهد انضباطاً ولا حماسة ولا حرصاً على استيعاب السلاح واستعماله والتدريب العسكري مثل هؤلاء.*)

ونستطيع القول إن الهجرة كعملية عسكرية كانت ناجحة يشاد بها لأن الناس

خرجت ووصلت المعسكرات في أفواج كبيرة، ولم يحس بها أحد، كذلك الهجرة الثانية من الغرب للشرق من إثيوبيا لليبيا عبر الأراضي السودانية كانت ناجحة وتستحق أن تدرس فقد كان فيها إنجاز عظيم.

المعسكرات بليبيا كان الأداء العسكري فيها ممتازاً جداً. وأشاد بها الليبيون أنفسهم. وكانوا يقولون إن ناسكم هؤلاء نسيج وحدهم، وكانوا يحذقون السلاح أكثر من المحاربين من الإخوان والاتحاديين مع أنهم كانوا متعلمين وبعضهم أساتذة جامعات، وقيل إن القذافي مرة أشار للمهاجرين الأنصار وأنشد بيت الشعر:

نصيبك من فقيه أو سفيه ... ففي هذا وذا حصن وحسن

فإن سالمت فالفقهاء حسن ... وإن حاربت فالسفهاء حصن

ثم علق قائلاً: غريبة هؤلاء فقهاء ولكن يحاربون أشد من السفهاء!

كانوا رهبان ليل فرسان نهار.

التحضير للانتفاضة المسلحة

جاء في كتاب المصالحة الوطنية حول الانتفاضة المسلحة والتحضير لها التالي:

(وقعت بعض الاختلافات بين شرائح الجبهة ثم سويت مما جعل بعض الأخوان المسلمين ينضمون للمعسكر الغربي، ويصبح السيد مهدي إبراهيم مساعداً في إدارة المعسكر الغربي، وفي أواخر ١٩٧٥ م راجعت قيادة الجبهة الموقف فوجدت أنها تملك السلاح والرجال والمال ولكن ليس معها قيادة عسكرية جيدة، ولا معلومات كافية عن الأوضاع داخل السودان إذا أرادت أن تتحرك. فلم يكن هناك عساكر مهنيين. وتم اختيار الشهيد محمد نور سعد كقائد عسكري للانتفاضة.

الشاهد أنه جاء في تقرير السيد الصادق المهدي للمكتب السياسي للجبهة الوطنية في أغسطس ١٩٧٦ م والذي نشره في كتاب المصالحة الوطنية حول التحضير لهذه الانتفاضة، التالي:

(في أوائل عام ١٩٧٦ م وضع هيكل حركة يوليو علي أن يكون من ثلاثة شعب:

شعبة شعبية: وفحواها أن يتم استقطاب للقوي الشعبية والفئوية والمهنية

والجماهيرية لتتحرك لصالح المعارضة.

شعبة عسكرية وفحواها أن يستقطب جزء من القوات المسلحة لمساندة الحركة.

شعبة فدائية: وفحواها أن يقوم المهاجرون المدربون بعمل فدائي منظم منسق مع الآخرين للإطاحة بالنظام القائم في السودان.

الشعبة الفدائية

اختلف كل من محمد نور سعد وحسين الهندي في كيفية مشاركة القوة الفدائية.

كان محمد نور سعد يري أن احتلال جزء من السودان أسهل فيحتل مديرية دارفور، وهذا سيفجر التناقضات الموجودة في النظام ويخلق مواجهة تمكن الجبهة من تعبئة الشعور والعمل لإسقاط النظام وكان رأي حسين الهندي أن تكون المعركة في الخرطوم وذلك بأن يقتحم المهاجرون المواقع العسكرية مسافرين عبر ناقلات مصطحبين معهم السلاح الثقيل ومواجهين الموقف بهجوم حاسم خاطف وأحيل الأمر للسيد الصادق المهدي فكان رأيه:

أولاً: موضوع احتلال جزء من أقاليم السودان إذا نجح عسكرياً سيفيد النظام سياسياً ودبلوماسياً لأنه سيكون المدافع عن وحدة البلاد، وسيظل علي المعارضة شبهة موقف انفصالي ضار لذلك أرى ألا نأخذ به.

ثانياً: التحرك الاقتحامي معرض للاكتشاف عبر رحلة صحراوية طويلة، فإذا انكشف أبيدت القوة في طريقها. هذا التحرك يفقد المرونة لأنه متى ما تحرك لا يمكن تأجيله وإعادة النظر في مواقيته.

ثالثاً: لا يتيح مجال التنسيق مع الجهات الأخرى وخاصة القوات المسلحة.

واقترح السيد الصادق المهدي استبعاد الاقتراحين واقترح خطة أخرى: بتسريب القوي الفدائية وكمونها داخل العاصمة وتوفير سبل المواصلات لها عن طريق لوارى وعربات تشتري داخل السودان، وتسريب الأسلحة الخفيفة اللازمة للتحرك الأول ودفنها لتكون في المتناول بالداخل، وإدخال القائد العسكري للحركة ليتولى التنسيق مع القوات المسلحة، فلا يتم تحرك معزول منها ولينسق مع القوي الشعبية أيضاً، فتقوم

بدورها، وبعد مناقشة اتفق علي هذا الاقتراح وصار قاعدة خطة الثاني من يوليو.

الشعبة العسكرية

في عمر النظام حدثت العديد من الانقلابات سوف نفصل بعضها لاحقاً. الضباط وضباط الصف الذين اشتركوا في هذه الانقلابات خاصة انقلاب حسن حسين ونجوا من الإعدام أو الحبس، كانوا قوام العسكريين في انتفاضة يوليو. وعلى رأسهم محمد نور سعد.

كان محمد نور سعد ضابطاً مميزاً تخرج مهندساً وعمل فترة بسلاح الأسلحة، وقد عاش في ألمانيا وتزوج بألمانية، وعاد للسودان واتهم بتدبير محاولة انقلابية فحكم عليه بالطرد من الخدمة والتجريد من الرتب العسكرية والسجن المؤبد، ثم رأى النميري بعد فترة إطلاق سراحه وسمح له بالخروج لألمانيا.

يحكي الحبيب عبد الرسول النور قصة مفادها أن محمد نور سعد كان يخطط لتحرك أجهض في مهده في أغسطس ١٩٧٤ م، وأنه بعدها تعرض للاستفزاز من قبل النميري الذي قطع علامات العميد من على كتفيه وألقى بهما في سلة المهملات. وأنه بعدها التحق بقوات المعارضة بالخارج.

والحقيقة هي أن الاتصال بمحمد نور سعد تم عبر السيد الصادق المهدي الذي قرر آن يسد النقص العسكري في موقف المقاومة بالآتي:

(أ) عرض القيادة العسكرية للحركة للعقيد (المرحوم) محمد نور سعد واستشارته في جدواها بصفته صديق وعالم عسكري.

(ب) بناء تنظيم للعمل الداخلي يتخطي كل المسئولين السابقين ويقوم علي أساس كادر غير معروف للأمن.

(ج) الاستفادة من الخلايا الموجودة داخل القوات المسلحة لتوفير المعلومات عن الأوضاع الأمنية والدفاعية بالداخل.

ونتيجة لذلك سافر محمد نور سعد إلى المعسكر الغربي ومكث شهراً وعاد يشيد بما رأي ويوافق علي القيادة ويحدد بعض النقائص وكيفية علاجها. هذا كما أقيم تنظيم

داخلي لا صلة له بالقادة السياسيين المعروفين وأقيمت شبكة لجمع المعلومات داخل السودان.

الشعبة الشعبية

الحقيقة هي أن المعارضة التي نشطت في الخارج حتى وصلت إلى ما وصلت إليه في سرية تامة لم تكن تجد نشاطاً مماثلاً داخل السودان، بل أدت الإجراءات التي أعقبت حركة شعبان ومحاولات الانقلاب العسكري إلى تضييق الإجراءات في الداخل تضييقا فائقاً، مما دفع المعارضة في الداخل إلى حالة يأس تام وبدأت تفكر في الاغتيال الفردي كوسيلة وحيدة لمواجهة الموقف، ولكن الجبهة الوطنية لم تستجب لهذا التفكير.

بالداخل كان الدكتور الفاضل الجاك شريف مسئولاً عن التنسيق مع القياديين السياسيين ومعه مجموعة منهم السادة مهدي الطيب الحلو ومبارك عبد الله الفاضل، وعبد الرسول النور، والفاضل عبد الله الفاضل، وتبيرة إدريس هباني، وعمر إدريس هباني، وسارا الفاضل، كما كان هناك نقابيين في مجال العمال كصديق يحي عبد الله وصديق شريف ومحمد شريف حسن وعبد الحميد صالح. هذه الكوادر القيادية، بالإضافة لمجموعة كبيرة من الطلبة في الجامعات مثل إبراهيم تيمس وسعيد نصر الدين ورحمي إدريس أبروف وشيخ الطاهر النذير ومحمد أحمد منصور وحماد تاور وأيضاً: محمد مكي الشيخ ومحمود أبشر أبو سعيدة المسئول الإعلامي، وكان الفاضل الجاك المسئول الرئيسي من التنسيق مع الأحزاب الأخرى.

هذا العمل لم ينجز لأنه ضبط وتم اعتقال جزء كبير من كوادر الحزب بالداخل مما أعاق التحرك الشعبي أو شله تماماً. وقد حدث ذلك في عام ١٩٧٥ م.

بعد ذلك أبعد الفاضل الجاك من العمل لأنه انكشف، ولم تكن له بالتالي أية صلة بالترتيبات التي تلت والتي انتهت بالانتفاضة المسلحة في ١٩٧٦ م.

انقلاب حسن حسين:

في الفترة ما بين (١٩٧٣ م ١٩٧٦ م) تعددت محاولات الانقلاب العسكري علي النظام القائم، وكان الإقبال من العسكريين والمدنيين علي هذه المحاولات كبيراً لدرجة شجعت علي التسرع أو اللامبالاة في التجنيد للحركة والوقوع في فخ المخابرات. ومن

أهمها كانت حركة العميد عبد الرحيم شنان في ٥/ ١/ ١٩٧٣ م، وتململ العميد محمد نور سعد في أغسطس ١٩٧٤ م، وحركة العميد أنس عمر في يناير ١٩٧٦ م، وانقلاب حسن حسين في ٥/ ٩/ ١٩٧٥ م، وحركة العميد عبد الله محمد آدم بعده مباشرة.

نظمت انقلاب حسن حسين الجبهة القومية السودانية التي تكونت من عدة أحزاب هي: جبهة غرب السودان برئاسة الدكتور عز الدين المهدي، واتحاد عمال جبال النوبة برئاسة القس فيليب عباس غبوش، والقاضي حسين خرطوم درافور، وجبهة نهضة دارفور بزعامة أحمد إبراهيم دريج، وحزب وحدة غرب السودان برئاسة معتصم المتقلاوي المحامي، وكانت قد عقدت مؤتمراً وتوحدت تحت الجبهة القومية السودانية في ١٩٧٠ م.

كان أغلب أعضاء هذه الجبهة من العسكريين داخل وخارج الخدمة، وكثير منهم ممن ساهم في دحر انقلاب هاشم العطا ١٩٧١ م وإعادة النظام المايوي الذي رأوا أنه حذلهم وصار التفكير الجدي في إزالته وإرجاع الديمقراطية للبلاد.

وقد شكلت هذه الحركة تحدياً قوياً للنظام، ولم تكشف إلا في الساعات الأخيرة لأن أحد أعضاءها (حامد فتح الله) والذي عقد اجتماع ساعة الصفر ببيته كان مشكوكاً في تحركاته مع الجبهة الوطنية. وكان في قيادة هذه الحركة كثير من قيادات وكوادر الجبهة الوطنية، أمثال الشهيد عباس برشم الذي كان سكرتيراً لاتحاد طلاب جامعة الخرطوم الذي اشترك في انتفاضة شعبان وكان من قيادات حزب الأمة، والأستاذ كمال الدين عباس المحامي وكان من قيادات حزب الأمة.

البيان الذي تلاه المقدم حسن حسين على الناس عبر الإذاعة كان مقتضباً ومرتجلاً وقد أمر نيابة عن الشعب بحل الاتحاد الاشتراكي، وحل مجلس الشعب، وحل مجلس الوزراء، وحل جهاز الأمن القومي، وحل جهاز توتو كورة! كما أعلن المبادئ الآتية: استقلال الجامعة، استقلال القضاء، حرية الصحافة، حماية البلاد ضد الفاشية، وإقامة ديمقراطية سليمة)[1].

ولأن الاستخبارات ضبطت التحرك في إطار شكها في تحركات الجبهة الوطنية،

(١) من كتاب المصالحة الوطنية، بتصرف

ولمشاركة عدد من قياديي حزب الأمة بالانقلاب فقد اعتبرت السلطات المايوية أن للحزب ضلع كبير فيه، فتم اعتقال السيدة سارا الفاضل في المطار حيث كانت قادمة من لندن، واتهموها بأنها جاءت ببيان الانقلاب من السيد الصادق، فاعتقلت لمدة شهر في مقر الأمن مع كثيرين منهم الشهيد عباس برشم والسيدة سعاد زوجة السيد أحمد زين العابدين، وكان قد حضر للإذاعة حينما احتلت وتبرع بإذاعة بيان يضمن استمالة الجماهير للانقلاب، باعتبار أن البيان الأساسي فقد والذي أذيع كان مرتجلاً، وإن كان الانقلابيون لم يسمحوا له بذلك فاختفى وسافر للخارج فوراً. فتم اعتقال زوجته بدلاً عنه!! وذلك تقليد مضى فيه النظام المايوي بانتظام مثلما سوف نرى!

الشاهد، بعد اعتقالها شهراً في مقر الأمن في ظروف سيئة، تم تحويل أمي سارا بعدها لسجن أم درمان. بينما السبب الذي جاء بها وقد كانت في المملكة المتحدة برفقة زوجها، هي ترتيب ختان الابنين الأكبرين (عبد الرحمن، ٩ سنوات وصديق، ٧ سنوات حينها)، فقد كبرا ووالديهم بين السجون والمنافي وانتبه الوالد إلى ضرورة أن يجرى الختان في أقرب وقت، فعادت الحبيبة من لندن متعجلة لذلك الغرض ولكنها اتهمت بأنها جاءت مشاركة في انقلاب حسن حسين، ثم كان ما كان![1]

كانت تجربة قاسية علينا، فأمي برغم بعدها كثيراً عنا كانت حنونة عطوفة محبة شفوقة، وكانت فكرة سجنها خلف أسوار ذلك السجن الضخم الذي نمر به يومياً في طريقنا للمدرسة صعبة جداً، ولم يكن يسمح لنا بزيارتها، والصلة الوحيدة كانت ملابسها التي ترسل لتغسل في المنزل، وكنت استرق معها لحظات بعيداً عن أعين المراقبين أعبّ فيها من عطرها، وأبكي.. كنت في السابعة من عمري تلك الأيام، ولكني كنت أخشى جداً أن أضبط متلبسة بذلك الانهيار!

أين القبور؟

كان العدد الكلي الذي اشترك في الحركة من العسكريين ١٩٢ منهم ١١ ضابطا و١٨١ ضابط صف وجندي، مع عدد من المدنيين. أقيمت ثلاث محاكمات لهم جرت بسلاح النقل وسلاح المدفعية بعطبرة ونفذ الإعدام بعطبرة، فأعدم ٢٣ منهم من

(١) سارا الفاضل، كتابات وأقوال في الفكر والسياسة والحياة، تحرير رباح الصادق، ٢٠٠٩م

العسكريين والمدنيين منهم المقدم حسن حسين عثمان، والرائد حامد فتح الله، وعباس برشم ومجذوب النميري من المدنيين، وآخرين، أعدموا ودفنوا وما زالت أماكن مقابرهم مجهولة حتى اليوم.

والحقيقة هي أن مسألة القبور المجهولة هذه هزت ضمير الشعب السوداني لتكررها بيدي المايويين والإنقاذيين من بعدهم. حتى قامت (الحملة القومية لرد قبور الشهداء لأهلها) تحت شعار: أوقفوا ثقافة مصادرة الجثث! وأصدرت الحملة مطبقاً ذكرت فيها أنها تهدف للكشف عن قبور الشهداء الذين تمت مصادرة جثثهم منذ الاستقلال وحتى الآن وتذكر منهم: قبر الشهيد مكي محمد مكي رئيس تحرير جريدة الناس ١٩٦٩م، قبر الشهيد د. محمد صالح عمر الحركة الإسلامية الجزيرة أبا (يا حسرة على مئات الأنصار استشهد معهم كلهم دفنوا بالكراكات في قبور غير معلومة وهم معلومون لكن لم تشر لهم بعبارة!)، قبور شهداء الانقلاب العسكري ١٩ يوليو ١٩٧١م، قبور شهداء انقلاب مناهضة الجبهة الوطنية (أي انتفاضة يوليو المسلحة في ١٩٧٦م)، قبر الشهيد محمود محمد طه ١٩٨٥، قبور شهداء ضباط حركة ٢٨ رمضان، وقبور شهداء ١٠ مايو (أحداث أم درمان) ٢٠٠٨م. وأضاف لهم الدكتور أمين مكي مدني قبور شهداء ما سمي بالمحاولة العنصرية في ١٩٧٥م بقيادة حسن حسين، مشيراً لأن ما حدث في كل تلك المرات لا يُقبل على أسس قانونية ولا أخلاقية ولا إنسانية ولا دينية، وأمّن على ضرورة كشف قبور الشهداء لأسرهم في كل تلك الحالات: في الشجرة في ١٩٧١م، وفي انقلاب حسن حسين ١٩٧٥، وفي حركة يوليو ١٩٧٦م، وفي ٢٨ رمضان، وفي ١٠ مايو ٢٠٠٨م، مؤكدا أن المسألة تخرج عن البعد السياسي ولا تعنى بالدفاع عن خط القائمين بتلك الحركات بقدر ما تعنى بأسس العدالة وحقوق الإنسان[1].

لقد أشار السيد الصادق لحقيقة انتهاكات حقوق الإنسان في السودان بتفصيل كبير في ورقة قدمها في مؤتمر (حقوق الإنسان في فترة الانتقال) والذي نظمته منظمة (جستس أفريكا Justice Africa) في كمبالا في فبراير ١٩٩٩م وكانت ورقته بالإنجليزية بعنوان:

(١) لمزيد من التفاصيل انظر رباح الصادق هل نستيقظ في بيت أم اليقظة؟ عدالة للجميع مقال نشر بصحيفة حريات الإلكترونية

المولد الثاني للسودان في مهد حقوق الإنسان المستدامة[1]. في ذلك الكتاب قال: خلال السنوات التسع التي قضتها الحكومات الديمقراطية في السودان كانت انتهاكات حقوق الإنسان هي الاستثناء، بينما انتهاكات حقوق الإنسان هي القاعدة في سنوات الحكومات الاستبدادية. ثم قدم قائمة من ٤٣ انتهاكا لحقوق الإنسان مرتبة ترتيباً زمانياً ليست شاملة ولكنها تحوي أحداثا بقى تأثيرها في الذاكرة الوطنية على حد تعبيره، ثم دعا لسياسة فعالة وصحيحة تجاه انتهاكات حقوق الإنسان تهدف إلى:

أولا: إظهار الوقائع كما هي حتى يمكن تأسيس الحقيقة على إقرار رسمي وبصورة متفق عليها ولتكوّن رواية رسمية للأحداث تعلو على الاعتبارات الحزبية، وثانيا: يجب أن تعبّر هذه السياسة عن رغبة الشعب بطريقة صحيحة، وثالثا: لكل قطر ظروفه الخاصة التي تؤثر على تعامله مع هذه القضية، لا سيما بين الظروف التي تحتم اتخاذ إجراءات رحيمة وتلك التي تتطلب إجراء المحاكمات والعقوبات. وقال: إن لبيان وتثبيت الحقائق أثراً علاجياً، وبحسب كلمات روجيه إيريرا، عضو مجلس الدولة الفرنسي فإن «الذاكرة صورة قصوى للعدالة» كما أن لها دوراً رادعا لأن «قول الحقيقة حول الماضي يقوّض الأساس الفكري لانتهاكات حقوق الإنسان». ودعا لأن توضع تشريعات تحكم تكوين لجنة الحقيقة والاتهام ونصوص مرجعيتها وإجراءاتها والإطار الزمني، داعياً لأن تطال التحقيقات كل الانتهاكات منذ الاستقلال[2].

نعم، نحن لا زلنا نبحر في عهد السفاح، حيث الانتهاكات تمطت فوق جسد كل عام، وحيث جرّحت أروٰحنا وعذبت ضمائرنا نحن الذين شهدنا. لا بد من أن يعرف الناس، كل الناس، ماذا جرى؟

ولنواصل سردنا حول أولئك الذين تحدث باسمهم الشريف زين العابدين الهندي رحمه الله وهم يخاطبون عزة الوطن قائلين: (**أبشري؛ أبشري نحن لسع في الخلا مرابطين ..ونحن عقاب عهود، أنصار مع مهاجرين.. ونحن سهارى ما بنعرف غمضة العين ..ونحن فداك ، نذود عنك بقالنا سنين**).

---

(١) Second Birth in Sudan in the Cradle of Sustainable Human Rights ١٤٠

(٢) وقد ترجمت الورقة الطويلة للعربية ونشرتها دار الأمين (القاهرة) في كتاب بعنوان: حقوق الإنسان في السودان (١٩٩٩م) ترجمة د عبد الرحمن الغالي.

الاستعداد للانتفاضة المسلحة

وسوف نتابع ما حدث من كتاب المصالحة الوطنية:

(حدد العقيد الشهيد محمد نور سعد العمل اللازم للحركة، واختار الأفراد، وحدد نوع السلاح اللازم وكميات العتاد والأجهزة اللازمة لتدفن في موقع قريب من العاصمة.

وعبر الأشهر الأولى من عام ١٩٧٦ م تسربت القوة إلى داخل السودان، وبدأ إدخال الأسلحة لدفنها بالداخل.

وفي إبريل ١٩٧٦ م عقد مؤتمر حربي أول ببنغازي، واتخذ المؤتمر القرارات الآتية:

(أ) أن يدخل قائد الحركة إلى السودان متسرباً عبر الحدود الشرقية.

(ب) أن يدفن السلاح والعتاد علي بعد ٧٠ كيلومتراً من العاصمة.

(ج) أن يلبس الفدائيون ملابس مدنية عادية زيادة في أسباب المفاجأة.

(د) أن يتولى جهاز الإشراف الداخلي مراقبة الأمور لتغطية تحركات إدخال السلاح وكذلك تحركات المهاجرين بالداخل منعاً لانكشاف الأمر. هذا تولاه المرحوم إبراهيم أحمد عمر.

(ه) إلحاق أكبر عدد ممكن من المهاجرين بالشرق بالحركة ليساهموا فيها وليكونوا احتياطياً للحركة. وهذه المهمة أوكلت للسيد نصر الدين الهادي.

(و) أن يكون السيد مبارك الفاضل حلقة وصل يبين القيادة في الخارج وبين العقيد محمد نور.

(ز) أن يحضر السلاح الثقيل ليصل إلى مكان المعركة في ظرف ثلاثين ساعة.

(ح) أن تفتح القيادة في الخارج جهاز اللاسلكي ما بين الثامنة والتاسعة كل مساء للاستماع لأنباء التحرك في شكل رموز: أخضر معناه التحرك في ٧٢ ساعة. أصفر في ٤٨ ساعة. أحمر في ٣٦ ساعة. أبيض معناه انتظروا، أسود معناه لم نتفق مع القوات المسلحة بالداخل ولذلك يؤجل التحرك إلى فرصة أخرى ويخرج القائد للتفاكر.

(ط) أن يعقد مؤتمر أشمل في لندن قبل دخول القائد العسكري للسودان.

مؤتمر لندن

عقد مؤتمر لندن في ٢٠/ ٤/ ١٩٧٦م، وحضره كل أعضاء المكتب السياسي للجبهة الوطنية، ومعهم الشهيد محمد نور سعد واستعرض المجتمعون الموقف، وقرروا الآتي:

- إكمال ترتيبات دخول محمد نور سعد لداخل البلاد ووضع خطة لدخول القادة السياسيين.
- أن يقوم محمد نور بعد دخوله بإجراء اتصالات مع عسكريين لضمان مشاركة جزء من القوات المسلحة، فإذا لم يتوفر هذا العنصر عليه تأجيل الحركة لموعد آخر والخروج للتفاكر مع القيادة السياسية.
- أن يقوم محمد نور بإخطار ثلاثة من قادة العمل الشعبي بالداخل بمواعيد تحركه ليضمن المشاركة الشعبية.
- عندما يتأكد القائد في الداخل بأن جميع أموره تسير علي ما يرام يخطرنا لاسلكياً بواسطة الجهاز لتتحرك القوة المزودة بالسلاح الثقيل، وعليه ضماناً لوصول الخبر أن يرسل تلغراف لعنوان بلندن لينقل الخبر بصورة رمزية.
- وأجمع المجتمعون على البيان الذي سيلقيه محمد نور، واتفقوا عليه، وأدخل محمد نور تعديلات في البيان كلها في اتجاه ضمانات ديمقراطية في النظام الجديد، وضمانات عدالية في محاسبة رجال العهد القائم.
- إذا دمرت الإذاعة (الحالية) العادية يستخدم إذاعة سوبا ويحضر له ما يكرفون لذلك وإذا تعذر استعمال هذه يستخدم إذاعة أهلية كانت قد قويت لتتمكن من البث في نطاق ٣٠ كيلو متراً.
- في اللحظات الأولى من الحركة يقوم القائد بفتح سجن كوبر، وإسناد مهام قيادية لعدد من العسكريين الموجودين بداخله، والاستعانة بضباط الصف والجنود المحبوسين فيه لتأمين الموقف وإتاحة الفرصة للقادة السياسيين المحبوسين أن يقودوا الشارع السوداني لصالح الحركة.

وما بين آخر إبريل ١٩٧٦ وأواخر يونيو ١٩٧٦ جرت التطورات الآتية:

(أ) دخل محمد نور الخرطوم، واستقر هناك، وشرع يراسل القيادة في الخارج بتطورات الموقف. فأكد أن المهاجرين وصلوا جميعاً وهم بخير، وانه متأكد من تجاوب جزء كبير من القوات السودانية المسلحة مع الحركة.

(ب) محمد نور لم يتصل بالأفراد المعنيين لتنظيم العمل الشعبي لأنه وجد تنازعاً بين الاتحاديين. فواحد عينه حسين الهندي مسئولاً هو علي محمود حسنين، وآخر عينه أحمد زين العابدين مسئولاً هو حسن حضرة، ولم يجر تفاهم بين الهندي وأحمد زين العابدين، فتضاربت التصرفات، واشتد النزاع الداخلي مما جعل محمد نور يخشي انكشاف الأمر ولذلك ترك أمر التجاوب الشعبي للإذاعة.

(ج) أفاد إبراهيم أحمد عمر أنه استطاع مراقبة كل تحركات الأمن، مما ساعد علي إدخال الأسلحة بسلام، ودفنت حوالي ٣٤٠ كيلو متراً شمال غرب أم درمان.

(د) وصل تقرير يفيد أن العربات التي كلف الفاضل عبد الله وآدم وعمر بشرائها قد اشتريت وسيكتمل عددها في يوم ٣/٦/١٩٧٦م لتكون ٢٠ سيارة ولوري و٦ سيارات صغيرة وستزود بالوقود والزاد والمياه للركاب.

(ه) عملية تسريب المهاجرين من ليبيا وزراعتهم داخل السودان وداخل العاصمة كانت عملية عظيمة وناجحة من الطراز الأول، وقد قام بتنظيمها بالداخل عدد من كوادر الحزب منهم السيدة سارا الفاضل وعمر الشهيد وعبد اللطيف الجميعابي وعبد الرسول النور وآخرين، حيث تم تقسيم العاصمة لمناطق وأحياء مسئوليتها لدى أشخاص مفتاحيين، يقومون باختيار البيوت لإقامة المحاربين مع أسر باعتبار أن يسكنى في بيوت منفصلة ستلفت النظر، فكان أغلبهم مع أسر مع الحرص لأن يكونوا يكتمون السر، وتمت العملية بسرية تامة. كان عدد المجاهدين الذين تسربوا أكثر من ثمانمائة، وكلهم دخلوا واستقروا وأقاموا فترة وبعدها خرجوا لمناطق استلام السلاح وتجمعهم في منطقة جبال كرري ورجعوا لمناطقهم داخل الخرطوم.

وقبل الحركة وقعت بعض المشاكل الهامة:

(أ) حاولت القيادة بالداخل التعرف علي موقع دفن السلاح، فوجدته علي بعد ٣٤٠

كيلو متراً شمال غرب أم درمان، فقررت حمله إلى نقطة تبعد ٧٠ كيلومتراً وقررت أن العربات بالداخل غير مضمونة، فأرسلت للقيادة بالخارج فأرسلت لهم ناقلتان مرسيدس وسيارة تويوتا ومزيداً من الأسلحة والذخائر في حملة يقودها أحمد والصادق وإبراهيم والمرحوم يوسف نصر ووصل هؤلاء وقاموا بالمهمة واشتركوا في الحركة.

(ب) وقعت خلافات بين أطراف الجبهة داخل السودان مما يوضح قلة التنسيق والتعاون بينهم، وأهمها اتخاذ علي محمود حسنين موقفا قيادياً غير متفق عليه. وإصدار قيادة الإخوان توجيهاً لكوادرها بالابتعاد باعتبار أن قيادتهم بالخارج مختلف عليها.

ساعة الصفر

تشكيلة التحرك في ساعة الصفر كانت كالتالي:

القائد العام للجيش محمد نور سعد.

محمد عبد المولى نائب محمد نور سعد، ليتجه نحو منطقة الشجرة، المدرعات.

أحمد حماد، لمنطقة وادي سيدنا.

عبد الله عربي، الإذاعة.

نمر آدم أحمد، القيادة العامة (نائبه آدم إسماعيل إبراهيم، سلطان)

عبد الرحمن، سلاح المظلات بشمبات

إبراهيم جفون، سلاح المهندسين

وفي الحقيقة كان أداء المهاجرين وقيادتهم في مرحلة الأداء عظيماً:

- تسربوا في العاصمة بانضباط شديد.
- دفنوا سلاحهم في مواقعه بصورة رائعة.
- ويوم التجمع خارج أم درمان خرجوا جميعا في سرية تامة.
- وقاموا بالمهام العسكرية المحددة لهم بدرجة عالية من الكفاءة والفدائية.

في يوم الخميس ١/٧/١٩٧٦ تحركت القوات إلى خارج العاصمة وتجمع

المهاجرون والقائد والسلاح و١٨ ناقلة و٧ عربات بوكس في منطقة بالقرب من ام درمان وكان مقرراً أن يوزع وتعطي التعليمات الأخيرة ويتم التحرك ليتم الاستيلاء حوالي الساعة الثامنة مساء، ولكن لأسباب ليست واضحة لم تتحرك القوات إلا في الساعة الثانية صباحاً، وأخذت القوة الرئيسية طريقاً أطول وأكثر وعورة فوصلت أمبدة الساعة ٤:٤٥ صباح الجمعة هذا بينما أخذت القوة الموجهة للشجرة طريقاً أقصر وأفضل فوصلت هدفها في الشجرة عندما وصل الآخرون أمبدة. وفي أمبدة سمعوا صوت نيران الشجرة ومن أمبدة تحرك الجميع نحو أهدافهم فاحتلوها جميعا واجدين مقاومة في الوادي والمهندسين والشجرة والقيادة العامة ومتغلبين عليها وفي الشجرة كسرت ثلاث دبابات الحظيرة وخرجت لتقاوم من مسافة تفوق مدي القاذف واستطاع المهاجرون أن يعطلوا إحداها وحاول بعض المهاجرين الاستفادة منها ولكن تدريبهم كان عاجزاً مما حال دون استخدامها.

ومن الهفوات الهامة:

(أ) لم توجه قوة لبحري وكان ذلك هاماً لفتح السجن والاستفادة بمن فيه.

(ب) لم يذهب قائد الحركة لرئاسة القوات كما كان مقرراً وانشغل بعطل الإذاعة وبمقاومة المهندسين حيث أبدي بطولة وإقداما فائقين وجرح جرحاً بسيطاً.

(ج) لم تقم وحدات من القوات المسلحة بدور في التحرك كما كان مقرراً ومتوقعاً ومؤكداً، ولعل السبب هو انتظارها للإذاعة .علي أي حال عدم قيام هؤلاء، وعدم فتح السجن جعلا القائد وحيداً مما شتت جهوده واتعبه تعباً شديداً. هذا كما أن عدم اكتمال جهزة الاتصال أفقد القوات حلقات الوصل ببعضها البعض.

(د) وكان القائد العسكري يري أن الوحدات خارج العاصمة لن تقدم علي الحضور لمقاومته ولكن هذا التقدير لم يصح لأن صمت الإذاعة وعدم معرفة هوية الحركة أتاح الفرصة لرجال الحكومة أن تشغل إذاعة احتياطية من بحري (إدعت أنها من جوبا) وتصف الحركة بأنها حركة مرتزقة أجانب مما ضاعف همة القوات السودانية للقضاء عليها.

(ه) الإذاعة لم تنطق وكان مع محمد نور ميكرفون لاستخدام إذاعة سوبا فلم يذهب

لاستعماله ولعل السبب أنه لم يعثر علي المهندس الذي كان سيعاونه [illegible] سوبا ولسبب ما لم يشأ استخدام الإذاعة الأهلية المشار إليها آنفاً. (وبه المهاجرين أن مقتل زميله اللواء طبيب حسين عبد الرحمن الشلالي، وكان متفقاً معه على المشاركة في التحرك مع بعض العسكريين ولكنه لم يعرّف نفسه لقوات المهاجرين فقتلوه، أن حادثة مقتله تسببت في هبوط الروح المعنوية للشهيد محمد نور سعد بدرجة كبيرة وبعدها لم يعد متحمساً كما يجب)[1].

الشاهد، كل هذا جعل هوية الحركة غامضة وساعد علي القضاء عليها وشل أنصارها الذين كانوا يتوقعون الإذاعة للتجاوب معها. وحينما فشلوا في استلام الإذاعة بثت الحكومة أن هذا غزواً أجنبياً، وخرج الناس لمساندتها، وأدى هذا للاشتباك في الشوارع مما أدى لأحداث دامية ومؤسفة.

(و) كانت القوة حاملة السلاح الثقيل بقيادة السيد الصادق المهدي تنتظر الخبر عن طريق لاسلكي في عوينات لتصل إلى ميدان المعركة في ثلاثين ساعة، وعلمت القوة أن اللاسلكي لن يستخدم خشية الرصد، وبقيت تنتظر الإذاعة للتحرك فتحركت الساعة الثالثة من عصر يوم الجمعة عندما تأكدت أن أمراً ما قد أخرس إذاعة أم درمان، وأسرعت نحو العاصمة حتى سمعت إذاعة بيان الحكومة عصر يوم السبت، وكانت علي مقربة من العاصمة فعادت أدراجها مقدرة أن الحركة قد أصيبت بنكسة)[2].

دِيلْ أَوْلاَدْ حَشَاكْ لاَ ارْتِزَاقْ لاَ زِيفْ

رحم الله الشريف زين العابدين الهندي، فقد أنصف في أوبريته الرائع المهاجرين والهجرة:

(أَرْجِينَا؛ بِنْجِيكْ مَوَحَّدِينْ صَادْقِينْ.. شَايْلِينْ المَدَافِعْ وبِالسَّمَاءْ طَايْرِينْ.. صَوَارِيخْنَا بْتَسَكِّلْ تَطْرِشْ اللِّضْنِينْ.. وفِي الجَّاسِرْ نَقِيفْ لِيكْ .. بالنَّصْرْ هازِينْ.. دِيلْ أَوْلاَدْ حَشَاكْ لاَ ارْتِزَاقْ لاَ زِيفْ.. ودِيلْ الكُلَّهُمْ صِنْدِيدْ وأَصْلُو شَرِيفْ).

(١) في الحلقة التوثيقية التي عقدت بدار هيئة شئون الأنصار، ٢٠٠٨

(٢) نقلاً عن كتاب المصالحة الوطنية بتصرف، مع إضافة مخرجات الحلقة التوثيقية مع المهاجرين وفقما تم التنويه في الهامش السابق

لم تحقق انتفاضة ٢ يوليو أهدافها لضعف الضلع العسكري، وتخلف الضلع المدني في الشارع الذي تسربت عنه معلومات أدت لتعطيل الكوادر السياسية، وعدم تشغيل الإذاعة حجب طبيعة الحركة وأعطى النظام المايوي المدعوم خارجياً فرصة تشويه الحركة بعبارة «المرتزقة» التي حركت القيادات العسكرية السودانية خارج لعاصمة ضد الانتفاضة.

وقد قال عنها السيد الصادق: (*عبارة مرتزقة هذه من أسماء الأضداد، فهؤلاء الذين تحركوا كانوا من أشرف المواطنين الذين دفعتهم الغيرة الدينية والوطنية للعمل الذي قاموا به وكان الأحرى بهم أن يسموا صفوة المؤمنين وأبناء السودان البررة. لقد اقترحت علينا القيادة الليبية أن تساهم بدور ما: كالطيران مثلا، ولكن حرصنا أن يكون المجهد سودانياً خالصاً. نظام مايو هو الأحرى بأن يسموا مرتزقة لأنه أول نظام حكم سوداني كان معتمداً على جهات أجنبية. دعمه المعسكر الشرقي ومصر الناصرية في عهده الأول ثم دعمه المعسكر الغربي ومصر الساداتية في عهده الأخير!*)[1]

وقال عن الانتفاضة إنها (*هي التي أقنعت النظام المايوي أن دعواه أنه قبر القوى السياسية المعارضة له دعوى باطلة فعرض شروط صلح أدت إلى إطلاق سراح المعتقلين وإلى حريات فتحت الطريق أمام انتخابات نقابية وطلابية فتحت الطريق للانتفاضة التي كانت طرقها مقفولة. العيب الوحيد الذي يؤخذ على تجربة ذلك النفر الفدائي الرائعة هو عدم النجاح في إدارة المشروعات الزراعية التي خصصت لهم بالمستوى المطلوب. وبعد عودة الديمقراطية حدثت معاكسات من كثير من الأطراف لعدم معاملة المهاجرين بالمستوى المطلوب. ولكن مهما كان يحق لكياننا أن يفخر بهذا النفر الفدائي وأن تضاف سيرتهم لسيرة الثورة المهدية والدعوة لأن تجربتهم تمثل فصلاً حديثاً ممتازاً من فصول الدعوة والثورة.*)

وبرأيي أن هذه الانتفاضة من أبرز جروح التاريخ على جسد الأنصار. فقد لصق عليها لاسم ولم يمح حتى الآن (المرتزقة) كدليل على قدرة الإعلام المضلل، وعلى عجز علامنا وحركة تاريخنا.

---

(١) في مقاله الهجرة الفدائية، ١٩٩٩م

وكما يقول المثل الأفريقي: (ستظل القصص تمجد الص... الكتابة)!

إن المتأمل للنفر من المهاجرين الذين خبرناهم عن قرب إذ ظلوا بين ملازمي الحبيب الإمام على مدى عقود، وهم عينة تمثيلية لذلك النفر العجيب، أمثال العم فضل، رحمه الله، والعم محمد عبد المولى، والعم حسين سلامة، والعم تيراب تندل، والشباب منهم أمثال محمد عبد الله والشيخ وأبكر إبراهيم طويل القامة وقصيرها، ونمر، وبشير، وعبد الرحمن وغيرهم يجد فيهم أخلاقاً ملائكية، قمة في الإيثار والانضباط والتعفف، حقاً صدق العم عابدين إذ امتدحهم..

المهاجرين.. المهاجرين يا الله

المهاجرين أكرمهم بي الدارين يا الله

أما بالنسبة للتجربة ككل، فإن إراقة الدماء التي ارتبطت بها برغم المحاذير التي اتخذت، هي برأيي الكابح الأساسي والمستمر للحبيب الإمام من الدخول في أية مواجهات مسلحة. صحيح إنه مرة أخرى جرّب العمل العسكري في التسعينات، ولكني أعتقد أن حماسته له كانت أقل بسبب تلك التجربة المرة، وقد ساهمت عوامل أخرى سنتطرق لها في أوانها لتقلل من حجم الهجرة الثانية، لكنه في جميع الأحوال ظل يجنح السلم بسرعة أكبر من غيره.. وها هو الآن في كل مواجهة يحجم والناس يدفعون، ويقول إذا دفعنا الناس لمواجهة بدون تحسب عواقبها، وأريقت الدماء فإنها مسئوليتنا أمام الله.

أما بالنسبة لنا في بيت السيد الصادق، فقد كان منزلنا، مرتعاً للرصاص الطائش لسكنانا قرب الإذاعة، أو سكنى الإذاعة قربنا بالأحرى، فقد كانت أمي رحمة رحمها الله تكرر كل ما قالت أمي عرجون: «خلت، خلت، من الأول السكن جنب الإذاعة» أي (غلط) السكنى قرب الإذاعة، وكانت أمي رحمة رحمها الله ترد بالقول: نحن لم نسكن قربها هي التي جاءت قربنا فحينما سكنا هنا لم تكن الإذاعة موجودة!

وقيل إن أحد سكان منزلنا فقد عقله لأن طلقة دوت قرب رأسه، ثم لما اشتد الضرب رحّلونا جميعا لنسكن لدى جداتنا بودنوباوي، أمي عائشة وأمي شامة بنتا الإمام

عبد الرحمن وهما جارات هناك.

وعلى نهجه المذكور في اعتقال قريبات المناضلين الذين يعجز عن الحصول عليهم، وهو نهج يدك قواعد العدالة سواء لدى الشرائع السماوية (لا تزر وازرة وزر أخرى)، أو لدى النظم القانونية الوضعية، فقد قام نميري هذه المرة باعتقال زوجتي الحبيب الإمام وأخته، وقيل إنه كان ينوي اعتقال والدته السيدة رحمة ولكن ردعه البعض من أن عمرها ووضعها سوف يجران عليه سخطاً ضخماً لو اعتقلها.

واعتقلت بالتالي أمهاتنا سارا وحفية ووصال في سجن أم درمان. وكانت سارا لم تخرج من سجن الاتهام الباطل بالاشتراك في انقلاب حسن حسين لأكثر من شهر، فأعيدت وهذه المرة قدمت لمحكمة عسكرية ولاقت أهوالاً أصابتها بالجلطة، وكادت تودي بحياتها.

قالت: (بعد انتفاضة يوليو تعرضتُ للتعذيب النفسي والإرهاب المعنوي أثناء لتحقيق وأوقاته وأساليبه الغريبة عنا كسودانيين، وذلك ضمن غيري من النساء في حزب لأمة اللائي تعرضن للإرهاب والسجن والتجويع والنوم على الأرض لعدة أيام. شملت هذه المجموعة معي وصال المهدي، حفية مأمون ليلي عبد الحميد صالح، والتومة شنوبه). وقالت إنها هي وليلى عبد الحميد صالح والتومة شنوبه كن (أول نساء سودانيات يحاكمن في محكمة عسكرية، ولم تحاكم قبلهن امرأة عسكرياً في منطقة العالم لعربي إلا جميلة بو حريد الجزائرية التي حاكمها الفرنسيون)![1]

وفي لقاء صحفي لها روت تفاصيل المحاكمة العسكرية قالت: (حوكمت محاكمة عسكرية فهي محاكمة صارمة انعقدت لمدة «٤٠ يوماً» في مقر القوات المسلحة القيادة العامة، وكنا ندخل من سجن أم درمان «بالكومر» وقوفاً وعسكرى من كل جهة واضعاً بندقيته إلى أن نصل تلاحقنا أعين الناس من كل إتجاه في الشوارع كأننا أشياء غريبة وأذكر أن «سفنجتي» قد انقطعت فاضطررت أن أذهب إلى المحاكمة برجل حافية إلى أن قامت مسجونة معنا بربطها.. كانت تلك المحكمة محكمة التجار بعد أن كانوا يريدون محاكمتي في محكمة المهندسين وهي محكمة إعدام.. ولكن عدداً من

(١) سارا الفاضل، مرجع سابق

المحامين علي رأسهم السيد الصادق الشامي قالوا إن تلك التهم التي وجهت لي: تجنيد أشخاص وإرسالهم إلى الخارج، لا ترقي لأن تحكم في محكمة المهندسين لذا رحلت إلى محكمة التجار، فالتحرى في هذه صعب جداً وكانوا يتحرون معي ليلاً في مقر الأمن بشارع البلدية أو في القيادة العامة)[1].

وكنا صغاراً نذهب لنشهد المحاكمة، وهناك نراها وراء قفص الاتهام، نشاهد الشهود الذين جاءوا ليشهدوا عليها أو معها، ولا أنسى أبداً منظر عمي السيد أحمد في منصة الشهادة كشاهد ملك. ولا ما سمعته بعدها وحفظته من أنه قال في المحاكمة الغيابية التي أجريت للحبيب الإمام الصادق المهدي: إذا لم تطله عدالة الأرض فسوف تطاله عدالة السماء!

وقد حكم عليه -أي السيد الصادق- بالإعدام غيابياً في تلك المحكمة.

وكانت أجهزة الإعلام والصحف تدبج له أوصاف النميري المسيئة.

وصرنا كأننا منبوذين بين الناس العاديين، فالناس يخافون مغبة العلاقة بنا، وحينما تلج باب المنزل لا تجد من أثر على الأرض الرملية إلا (أرجل الطير) وأرجلنا الصغيرة ونحن نحرث الأرض في لهونا اليومي.

وقد وصف منزلنا السيد غراهام الذي زار السودان في مهمة أعاد فيها مجاري العلاقات بين حكومة نميري وحكومة بلاده، ولكنه لم ينس أن يزور أصدقاءه حتى وهم أعدى أعداء الحكومة، توجه أولاً إلى قبة الإمام المهدي. وقال: (عندما دخلت تأثرت جداً بما رأيت.. لم يكن الضريح يلقى أي عناية، كان الغبار مكدساً والرمل يلف رايات الإمام الكبير. وكانت البيارق والشعارات وضريحا الإمام السيد عبد الرحمن وابنه الإمام الصديق، قد ركبهما التراب.. وقمت بالدعاء هناك ثم وقعت باسمي في سجل الزيارات وقد وجدت السجل مفتوحا لكنه لا تواقيع منذ ثورة مايو سنة ١٩٦٩م).. (وبعد مغادرتي القبة قمت بزيارة أرملة السيد الصديق السيدة رحمة وكانت لا تزال تعيش في بيت العائلة، في ذلك القصر الذي كان يشع تألقاً في الماضي، وهو الآن قد تقشرت قصارته وتكسرت شبابيكه وبات الأثاث فيه مهترئاً. هناك كانت السيدة رحمة ترعى جميع

(١) لقاء صحفي معها في: رباح الصادق سارا الفاضل كتابات في الفكر والسياسة والحياة، ٢٠١٠

أطفال العائلة لأن معظم نسائها ورجالها قد أُلقي بهم في السجن. وقد رأيت في وجه تلك السيدة وحضورها شيئاً من الجلال والوقار، فهي حفيدة المهدي ذاته، وقد أخبرَتْ زوجتي بعد ذلك بعام قائلة: أنا ولدت أعرابية (بدوية) فحاجاتنا قليلة، وأنا لا زلت من البدو، وسنقاوم ما نحن فيه ونعيش.. نعم إننا سنبقى)[1].

كنا صغاراً، وحينما كبرنا علمنا أنه مرت ظروفٌ قاسية، اضطرت معها أمنا عرجون، القائمة على تربيتنا والعناية بنا، أن تبيع بعض الأثاث أو الأواني القيمة التي كانت أمي تحرص على اقتنائها، كي تسد رمقنا.

الجوع لأيام ممتدة والحاجة القاسية عشناها كذلك في عهد (الإنقاذ)، فالسيد الصادق في رحلة الأهوال كان دائب الجهاد بالمال، وحورب به في خططٍ لئيمة. لكن تخويف الناس منا لم تستطعه أبداً حكومة «الإنقاذ» مهما فعلت، فحتى حينما كان منزلنا محاطاً بالدبابات ومحروساً بالكتائب في أيام «الإنقاذ» الأولى كان الناس يأتون ويسألون عنا، ويصرون على استدعاء أحدنا ليبلغوه السؤال! ومهما طالت لحظات حاجتنا ظللنا كما نحن لا يغيرنا لبس الدلقان! فسلطان الصادق لم يستطع أحد من الجبابرة أن يجرده إياه، لأنه ليس ممنوحاً من قبل أحد، بل من قبل الله الذي ألقى عليه محبة الناس! ولا يستطيع أحد مهما بلغ سلطانه الفاني نزع ما أعطاه الله.

الملاحقة في بريطانيا وفريق للاغتيال

في هذه الفترة سعت الحكومة لملاحقة السيد الصادق في بريطانيا، في أغسطس ١٩٧٦م احتج نميري لدى الحكومة البريطانية (على وجود الصادق في بريطانيا)[2] فاتصل أحد موظفي الحكومة بالمستر غراهام توماس وطلبوا منه أن يبلغ السيد الصادق كي يتصل بهم لدى عودته لبريطانيا. وقالت وزارة الخارجية البريطانية إنها تطلب تعهدات معينة من السيد الصادق، وحينما عاد لبريطانيا وعلم بالأمر من السيد غراهام قال له (إنني لا أرغب في البقاء في بريطانيا إذا لم يكن مرغوباً في بقائي هنا)، ثم قصد وزارة الخارجية البريطانية حيث قابل اثنين من موظفيها طلبا منه عدم الاتصال

(١) توماس، سابق ص ١٣٢

(٢) توماس، مرجع سابق ص ١٥٨

بالصحافة، يقول غراهام توماس: (وسأل صادق ما إذا كانت الرقابة على الصحف التي يمارسها نميري في السودان قد غدت تنطبق على الصحف في بريطانيا)، وطالب بأن يُعطى الشروط كتابة و(ذكّرهما الصادق أن زوجته وعائلته ما زالت محتجزة منذ أربعة أشهر من قبل نميري دون محاكمة)[1]. يبدو أن هذا كان في نوفمبر من عام ١٩٧٦م حيث اعتقلت أمي سارا وأمي حفية وأمي وصال وعدد آخر من أفراد الأسرة والمئات من الأنصار وحزب الأمة منذ يوليو.

وكان نميري بصورة مستمرة يضغط على الحكومة البريطانية ويرسل منصور خالد إلى رئيس الوزراء البريطاني يرجوه ألا يمنح حق اللجوء السياسي إلى الصادق[2].

يقول السيد غراهام توماس: استمر الضغط على الصادق من قبل وزارة الخارجية البريطانية، فزاد قلقي عليه، وذهبت أنا وأزماي إلى شارع (١٠) داوننع ستريت لمقابلة توم ماكليني، وهو صديق قديم يشغل الآن منصب مستشار سياسي لجيم كالاهان، وللتحدث إليه عن قضية الصادق، فأكد لي توم أن منصور خالد قد أثار المسألة مع رئيس الوزراء، وعند ذاك سلمت توم مذكرة كان الصادق قد وقعها ليتم رفعها إلى المستر كالاهان، فيما كنت أنا وأزماي نغادر المكان. وقد وعدني توم أنه سيبحث القضية برمتها مع رئيس الوزراء وأضاف: أنا متأكد من أن صاحبك الصادق لن يتم ترحيله من بريطانيا أبداً.

ثم روى السيد غراهام كذلك كيف وصلت أنباء إلى الدكتور عبد الحميد صالح أن ضابطاً اسمه عثمان ورقيبين آخرين في الجيش (سيف الدين عبد الله، وعوض جاهية[3]) سيرسلان إلى بريطانيا (لتصفية الصادق وآخرين)، وقال: هذا (ما أكده منصور خالد الذي قال: لقد أمر نميري بإرسال فريق اغتيال إلى هنا)[4].

---

(١) نفسه ص ١٥٩

(٢) نفسه، ص ١٦٠

(٣) هكذا تُرجم الاسم، ولكنا لسنا متأكدين من أن هذه هي الترجمة الصحيحة، فالمترجم مثلاً قام بترجمة اسم أمي السيدة حفية بهيفاء، وترجم عمر نور الدائم بعمر نورالدين، والجزولي دفع الله بغزالي ضيف الله، وهكذا.

(٤) السابق، ص ١٦٣

حول الجبهة الوطنية

في ذلك الظلم والظلام، انهالت علينا عبر الصحف ووسائل الإعلام مقولات تـ... سيرة السيد الصادق ومن معه من رجال ونساء مخلصين انتظموا في صفوف الجبـ... الوطنية، وفي الحقيقة لم يكن من داعٍ لترديد تلك الأقوال، لأن بعض قائليها هم لحمنا ودمنا وتربطنا بهم صلة العقيدة والمودة. ولكني وقد حاولت القفز على تلك الأيام الكالحات، لتطوى مع مخازيها، وجدت ألا مناص من التعرض لبعض تلك الأقوال وتوضيح ملابساتها.

ذلك أن كتاباً نشر حديثاً للأستاذ صديق البادي حول الجبهة الوطنية، أعاد نبش تلك الأقوال فجعل أحاديثهم مخلدة، ومتاحة للباحثين في التاريخ بشكل ميسر. نفس المنطق الذي جعلنا مضطرين أن نتصدى لأقوال السيد محمد أحمد محجوب لأنها صارت مخلدة ومتاحة للباحثين يجعلنا مضطرين أن نتصدى لهذه الأقوال التي أتاحها وأزلفها للباحثين الأستاذ البادي.

ذلك الباحث، له ولهٌ عجيب بالقضايا والأحداث المتعلقة بالأنصار، بدون انتماء لهم. وكان كتابه حول أحداث الجزيرة أبا وودنوباوي قد امتلأ بالأقوال والأشعار المنشورة يومها وكلها في سب الأنصار وقيادتهم وإمامهم. وقال إنه لم يجد غير الرواية الرسمية المسيئة في مضابط دار الوثائق القومية، مع أن الأشعار المؤازرة لموقف الإمام ومن معه موجودة لمن أراد التقصي. أما في كتابه الثاني فلا يمكن لأحد ادعاء أن الرواية الأخرى غائبة فهناك كتب وإفادات وأشعار كثيرة متاحة حتى لسابلة الأسافير.

أورد البادي قصيدتان في البذاءة الشعرية للإساءة للسيدين الصادق المهدي والمرحوم الشريف حسين يوسف الهندي، فلماذا لم يورد أوبريت الشريف زين العابدين الهندي الذي يمجد فيه الرجلين ومن كان معهما وهو أوبريت أشهر من علم على رأسه نار؟ أوبريت كما قال صاحبه (فداء الذين خرجوا من أجل أوطانهم) وفيه:

أبشري ؛ أبشري نحن لسع في الخلا مرابطين..

ونحن عقاب عهود ، أنصار مع مهاجرين..

ونحن سهارى ما بنعرف غمضة العين..

ونحن فداك ، نذود عنك بقالنا سنين..

حالفين بيك قسم ، غالي وعزيز ويمين..

مانضوق راحة ، لانشوف زوجة لا والدين..

ولا ندفن رؤوسنا على الرمال خايفين..

حتى نودي من أشلانا ، أعلامك على القصرين..

وحتى نسوي للقصفوك مقبرتين..

زي ما صنع تارا ، علي الألف ألفين..

وحتى نكسر السد ، وينقسم نصين..

ويكون عيدنا الكبير، في مقرن النيلين.

***

وفي النهاية يقول:

أَرْجِينَا ؛ بِنْجِيكْ مَوَحَّدِينْ صَادْقِينْ..

شَايْلِينْ المَدَافِعْ وبِالسَّمَاءْ طَايْرِينْ..

صَوَارِيخْنَا بْتَسَكِّلْ تَطْرِشْ اللِّضْنِينْ..

وفِي الجَّاسِرْ نَقِيفْ لِيكْ .. بالنَّصُرْ هازِينْ..

***

دِيلْ أَوْلاَدْ حَشَاكْ لاَ ارْتِزَاقْ لاَزِيفْ..

ودِيلْ الكُلَّهُمْ صِنْدِيدْ وأَصْلُو شَرِيفْ ..

دِيلْ دُخْرِيكْ لِسْنِينْ الجَّفَافْ والحِيفْ..

ودِيلْ دَفَقَةْ يَنَابِيعِكْ .. شُهُورَ الصِّيفْ..

***

دِيلْ نِيلِكْ وكِتْ قَطْعَ البِرَكْ والقِيفْ..
ودِيلْ دِيَمَ السَّوَارِي الأَصْلُو مَا بِتْقِيفْ..
دِيلْ الرَّضْعُوا حُرْ لَبَنِكْ بِدُونْ تَحْرِيفْ..
ودِيلْ البِقَعُوا فِي نَارِكْ .. بِدُونْ تَكْلِيفْ..

***

دِيلْ إِتْبَاشَرُوبِكْ إِنْتِ دَرَقَةْ وسَيفْ..
ودِيلْ بَفْدُوكْ بِي أَرْوَاحُمْ نَقِيبْ وعَرِيفْ..
دِيلْ أَخْوَانْ صِدِقْ ، فِي اللّه دُونْ تَحْرِيفْ..
ودِيلْ يَاهُمْ .. عُيُونِكْ ، وقَلْبِكْ الوِّلِّيفْ..

***

خَايْضِينْ فِيكْ صَحَارِي تَقِيدْ لَهِيبْ وشَرَارْ..
وطَالْعِين فِيكْ جِبَالْ عَالْيَاتْ عَلِى الطَّيَارْ..
ونَعْرِفْ أَرْضِكْ المَحَدُودَة بالأَشْبَارْ..
ونَنْزِلْ فِي رِبُوعِكْ لِينَا مَلْيُونْ دَارْ..
ونَدْخُلْ فِيكْ ضُحَى ونَمْرُقْ مَعَ الأَسْحَارْ..
مَا حَجَبُوكْ عَلِينَا حَيَارَى .. أَوْ أَغْرَارْ.

***

نَارِكْ مَا انْطَفَتْ ؛ مِنْ يُومْ رَمَاكِ الغَادِرْ..
وسَجْنِكْ مَا فِضَى وأَهْلِكْ عَلِيهُو تدَافِرْ..
ولِلمُوتْ كَمْبَلُوا ولاَدِكْ مُغَنِّي وشَاعِرْ..
وكُلْ عَامْ لِيكْ عَيدْ بِالدَّمْ مَوَشَّحْ وظَافِرْ..

خِلِّي عَدُوك مجَهْجَه فِي حَكُومْتَه وحَايِرْ..

وقِيدِكْ هَسَّه بِنْكِسْره .. ونْحِدْلُو ضَفَايِرْ..

***

نِحْنَ أَوْلاَدِكْ العَارْفَانَا دُونْ تِذْكَارْ..

نِحْنَ الجِّينَا فِي نَسْلِكْ مِنْ الأَبْكَارْ..

نِحْنَ اللَّيلَه شَمْعِكْ فِي الَّضلاَمْ سَهَّارْ..

ونِحْنَ الفَجْرْ لِي اللَّيلْ كَانْ قَعَدْ كَانْ طَارْ..

ونِحْنَ نَضَرِّي وَرَتَابْتُو ونَشِيلَها عُصَارْ..

ونِحْنَ بَلاَبِلْ الحُرِّيَّة .. تَصْدَحْ حَتَّى فِي الأوكَارْ..

***

أَقُولْ فِيكْ تَانِي يَا سِتَّ الشَّرَفْ والطُّولْ ؟

وعِزِّك فِي الأرِضْ تَرْيَانْ فُرُوعْ وأُصُولْ!!

أَرُقْدِي قَفَى بِنْجِيكْ ، مَهْمَا زَمَانَّا يطُولْ..

وَمَهْمَا الدَّهرْ يَرْدِمْ ، فِي حِمُولنَا حِمُولْ..

وَمَهْمَا نَمُوتْ فِدَاكْ ،نِتْرامَى زُولْ فِي زُولْ..

بَرْضو مَنِيعَة إِنْتِ .. عَلِي القَدُرْ والصُّولْ.

***

وانْتِ كَبِيرَةْ ؛ أَكْبَرَمِنْ صَغَارْةَ العَسْكَرْ..

وانْتِ عَظِيمَة مَا بْذِلِّكْ سِلاَحَ البِقْهَرْ..

وانْتِ عَزِيمَة لا بْتِلِينْ ولا بْتِتْكَسَّرْ..

وانْتِ أُنُوفْ .. أَشَمْ مِنْ بِيلَه ، مَا بْتِتْعَفَّرْ..

***

قُودِيْلنَا الرُّسُنَّة وخَلِّفِي الأَشْتَامْ..

خَنِّقِي لِي دَلاَلِيكِكْ وصَحِّي النَامْ..

أَرْقُصِي الفَاشِرْ الهضْلِيمُو كَبَّ ونَامْ..

وقُولِي اللَّيلَة شَبَّالْكُمْ عَلَيَّ حَرَامْ..

لمَّا تْكَسِّروا القِيد أبْ عَشَرْ أَعْوَامْ..

ولمَّا تْقَنِّعُوا الكَاشْفَاتْ وَرَاء وقِدَّامْ..

ولمَّا تْجِيبُوا سَجَّانْكُ مْخَزِي ومِنْضَامْ..

ولمَّا اولادي يبقوا جنود .. ومُشْ خُدَّامْ.

وهي قصيدة طويلة جداً تصف السودان وعزته وسهوله ووديانه وبقاعه ولغات أهله وتنوعهم، اقتبسنا فقط مقاطع منها تصف قضية المرابطين في ٢ يوليو (عقاب عهود، أنصار مع مهاجرين)، وتنفي عن الحركة الارتزاق: (أَرْجِينَا ؛ بِنْجِيكْ مَوَحَّدِينْ صَادْقِينْ..) و(دِيلْ أَوْلاَدْ حَشَاكْ لاَ ارْتِزَاقْ لاَ زِيفْ.. ودِيلْ الكُلَّهُمْ صِنْدِيدْ وأَصْلُو شَرِيفْ). وقد لحنها وغناها الفنان عبد الكريم الكابلي. ولكن البادي لم يورد هذه الملحمة الرائعة التي صارت جزءاً من كلاسيكيات أدب الوطنية الباذخ، مفضلاً أن يورد السباب القراح، ويحاول الاعتذار عنه بكلمات لا تغطي سوءة الغرض.

وأورد البادي كذلك خطاباً طويلاً للسيد أحمد المهدي موجها للنميري كله قدح في ابن أخيه المحكوم عليه بالإعدام.

كما أورد أقوال المرحوم السيد الفاضل الجاك الذي وسّع من شهادته ليقول أقوالاً وجدت في مذكرات العميد يوسف بدري استنكاراً لبعضها.

كتب العميد في ١٥/ ٨/ ١٩٧٦م: أخبرني محمد بدري أن السيد الحسين الحسن رئيس القضاء العسكري قال: السبب في طلبي من الأمن أن د. الفاضل الجاك أخبر

المحكمة أني قدمت مساعدة لسفر الصادق المهدي عن طريق السفارة [illegible]
لعمري كيف حصل ذلك؟ والصادق وهو مسافر بإذن من الدولة، مع العلم بأني لم أ[illegible]
بسفره إلا بعد أن سافر ولم أره قبلها. وقد كنت غير مسرور في عدم استجابته للتعاون و[illegible]
أشجعه سياسياً ولا عملياً[1].

أورد البادي كل اتهامات السيد أحمد المهدي للسيد الصادق من أنه خلو من الوطنية، ويعمل من أجل مصلحته والوصول للسلطة غير آبه لما يحدث للوطن والمواطنين وحتى أسرته الخاصة، وأورد اتهامات الفاضل الجاك بتعاون السيد الصادق مع الأمريكان، وقبضه أموالاً منهم في زمان الديمقراطية، وقال إنه مسئول الجبهة المالي، وأدخل في شهادته قصصاً كثيرة على نهج القصة التي استنكرها العميد يوسف. ولم يكلف البادي نفسه أن يورد الرواية المقابلة، مما يفت في منطقه، ويثير التساؤل حول هدفه من التأريخ لتلك الحقبة، لأن ذلك الهدف ليس كشف الحقيقة بأية حال. إذ لو كان يبحث عن الحقيقة لوجد كتاب المصالحة الوطنية الذي نشر برمته في صحيفة الرأي العام عام ٢٠٠٠م. وغيره من المدونات والوثائق.

وفي المقابل كتب الأستاذ إبراهيم السنوسي القيادي الأخواني المعروف، في الصحف السيارة وفي الأسافير، مؤخراً متهما للأنصار أنهم كانوا ينوون الغدر بالأخوان والاتحاديين الذين كانوا يحالفونهم وحمد الله أن فشلت الانتفاضة ذاتها!

كل هذه التهم التي تنشر الآن كانت جزءاً من خطط نظام النميري لتشويه صورة المعارضة وحزب الأمة والأنصار على وجه الخصوص، ولكنها تهم تبعث في كل حين وآخر، يبعثها أعداء الحزب والكيان عن علم أو غير علم بكنهها، وسوف أورد جانبا مما دونه السيد الصادق حينها تعليقاً على تلك الأحداث والاتهامات تحت عنوان (الجبهة الوطنية)[2]:

السيد الصادق يفند شبهات حول الجبهة الوطنية ١٩٧٧

(إن جماعتنا كانت تهب للاستجابة لنداء الوطن في كل مرحلة من مراحل حياته، ففي

(١) مذكرات العميد، سابق ص ٣٥٣

(٢) من أوراق الحبيب الإمام، ورقة مصوّرة بخط يده صفحتها الأولى ضائعة كتبت على الأرجح عام ١٩٧٧م قبل إمضاء المصالحة الوطنية.

وجه الحكم الثنائي تم تكوين الجبهة الاستقلالية ... كري الأول تم تكوين الجبهة القومية بقيادته، وفي وجه الحكم ... ذلك تم تكوين الجبهة الوطنية بقيادته. وتكوين الجبهات هذا ليس إجراءً ... كياننا بل هو خطة سار فيها أئمة الأنصار في كل مرحلة من المراحل العصيبة التي ... تعيشها. وهو إجراء راجع لكلمة الإمام عبد الرحمن الصادق الشهيرة: لا شيع ولا ... ولا أحزاب. ديننا الإسلام وطننا السودان.

وبصعوبة شديدة استطاعت الجبهة الوطنية أن تتفق على ميثاق وطني يخط بناء السودان وبعث الإسلام وتوحيد إرادة السودانيين. وواجه العمل الجبهوي صعوبات كثيرة خارج السودان وأكثر داخل السودان ولكن قاعدة العمل الجبهوي كانت ولا زالت القاعدة الأفضل في مواجهة الاستبداد العسكري الحالي وفي بعث الإسلام وبناء السودان بعد ذلك.

ويعاب على الاتحاديين أن معظم جماهيرهم ورجالهم انخرطوا في النظام المايوي ولم يعد لهم وجود كبير كما كانوا، ومهما ضعفوا فإن زعيمهم السيد حسين الهندي كان ولا زال قوة صامدة مع المقاومة وكان ولا زال وسيظل يلعب دوراً كبيراً هو ومن يستطيع تجنيده من الاتحاديين في المقاومة.

يعاب على الأخوان المسلمين أنهم يحاولون انتزاع مكانة في الجبهة فوق حجمهم، وأنهم يظهرون التعاون مع الجبهة ويبطنون عدم الانخراط فيها مستقبلاً، وأنهم لم يستطيعوا إخراج جامعة الخرطوم لمساندة الانتفاضة الأخيرة، إما لأن قيادتهم للطلاب ضعفت أو عدمت. ومهما كانت حقيقة تلك المآخذ فإن الأخوان قوة سياسية وقوة صدامية وهم ونحن متفقون في مبدأ أساسي وهو بعث الإسلام. ومن الفشل الذريع أن نخفق في التعاون في هذه الأهداف مهما كانت المشاكل العرضية.

ويعيبون علينا أننا نحاول الانفراد بالأمر ويستشهد بعضهم بكشوفات الأخ ميرغني ضيف الله، وبشهادة الأخ محمود أبشر وما إلى ذلك من شهادات الشهود. إن كشوفات الأخ ميرغني ضيف الله هي عبارة عن كادر حزب الأمة الذي طلبنا تجهيزه وطلبنا أن تجهز كل الأطراف الأخرى كوادرها للعمل المشترك. أما عدم وجود تنسيق بين هذه

الكوادر وعدم إبلاغ الجهات الأخرى بالمواعيد فهذا ليس بتدبير منا بل إننا أمرنا العقيد الشهيد محمد نور سعد أن يبلغ جميع الأطراف السياسية بمواعيد تحركه قبل ست ساعات على الأقل. كما كتبنا للجهات أن تنسق بينها، فإن وقع تقصير في هذا الصدد فهو من باب الأخطاء التي يحاسب عليها مرتكبوها لا عمداً تعمدناه.

أما شهادة الأخ محمود أبشر فالحقيقة هي أن الأخ محمد نور هو الذي طلب دخول الأخ محمود أبشر ليستعين به في اتصالاته، ولا يوجد أي توجيه أن يستفاد منه في إبعاد الاتحاديين والأخوان، بدليل أنني عندما أرسلت القوة التي أوصلت السلاح إلى قرب أم درمان أوصيت الأخ إبراهيم السنوسي (أحد الأخوان) أن يقول للأخ محمد نور أن تلتزم الإذاعة عدم الخروج من سياسة الميثاق الوطني، وأن يقوم إشراف عليها لهذا الغرض، وفعلا أبلغ الأخ إبراهيم الرسالة وقال إن الأخ محمد نور وعده بأن يتولى الأخ إبراهيم الاشراف منفرداً أو مع آخرين (لا أدري) على الإذاعة. وشهادة الأخ محمود أبشر وغيرها من الشهادات انتزعت تضليلاً أو كرهاً منه ومن غيره بهدف واضح في سياسة الأمن وهو تصوير الأنصار بأنهم أرادوا الانفراد بالأمر.

وكتب الأمن كشوفات نشرها توضح أننا كنا سوف نقتل فلان وفلان...الخ، وهكذا استفاد الأمن من الشهادات لنشر الانطباعات التي يريدها، ووقع بعض السذج خاصة من بعض أطراف الجبهة في حذاء سياسة الأمن. إننا لم نخطط للانفراد بالأمر، ولن نفعل، لأننا أكثر الأطراف إيماناً بقيمة وأهمية العمل القومي (والدليل على ذلك أننا قبلنا دائماً أن نتحرك بأقل من حجمنا في الجبهة الوطنية).

ومن أساليب الأمن ضدنا محاولة تفرقة صف الجبهة الوطنية، وهذه المهمة من أولى واجبات الرشيد الطاهر بعد تعيينه رئيساً للوزراء.

ومن الأساليب شهادتا السيدين الفاضل الجاك وأحمد المهدي.

أما السيد الفاضل الجاك فقد استغلوا خوفه من التعذيب ومن السجن ليملوا عليه أنهم على علم بعدد كبير من رجالنا لكشفهم، وليجعلوه يرمينا بالتهم الصحيحة والباطلة، وليستعينوا به وبغيره في إضعاف صفوف الأمة والأنصار ذاتها. والحقيقة هي أن الفاضل الجاك مجمد منذ سبتمبر ١٩٧٥ م وذلك أولا لأنه وغيره من الكوادر

القيادية كشفوا لدى السلطات بواسطة شهادة محمد نجيب، وثانياً لأنه ظهر لنا أنه بالذات صار عقبة في سبيل النضال بما تملكه من مخاوف. فالفاضل الجاك لا يعلم من حركة يوليو ٧٦ شيئاً على الإطلاق، وكل معلوماته لا تتجاوز ما قبل ١٩٧٥م، وحتى تلك المعلومات قالها بطريقة مشوهة باطلة ليرضي الأمن وسياسة التشويه والتفرقة.

أما السيد أحمد المهدي فقد كان يرى منذ البداية أن نستسلم للحكومة المايوية لنحافظ على مصالحنا المالية ومكانتنا الاجتماعية كما فعل السيد محمد عثمان الميرغني. وقد أرسل إلي بهذا الرأي وأنا معتقل في جبيت، ثم جاءني به وأنا معتقل في بورتسودان، وذهب به إلى السيد الإمام في الجزيرة أبا، وفي كل حالة قوبل بالرفض، وعندما لم يجد شريحة من الأنصار يساوم بها فاروق حمد الله وزير الداخلية اتفق معه على الخروج من السودان إذ سمح له بتحويل أموال كانت مجمدة. فوافقوا وسمحوا له فسافر وأقام خارج السودان متخذاً موقفاً سلبياً من الأنصار في الهجرة ومن المعارضة في الخارج.

وكان السيد أحمد يخشى القيام بأي شيء ضد مايو لأن خطابات منه للسيد الإمام وجدت في حقيبة الإمام كانت تدل على أنه استلم أموالاً من الإمام ولم يردها وأنكرها، فكان يخشى أن تفضح الحكومة ذلك، وعندما قرر أن يرجع إلى السودان رجع باتفاق مع بعض رجال الحكومة ليتعاون معهم سراً. ونحن إذ كنا نعلم موقفه الحقيقي وسلبيته من كل حركة المعارضة منذ البداية وشماتته على حوادث الجزيرة أبا لم نشركه في الأمر بل عاملناه بالمجاملة والاحترام دون المشاركة في أمور يخشى أن يبلغها للحكومة رغبة أو رهبة.

إن موقف السيد أحمد من تأييد الحكم المايوي ومناهضة المعارضة موقف قديم بدأ منذ البداية وليس فيه من جديد إلا أنه اليوم وجد الجرأة لإعلانه. ونفس الأمر ينطبق على آخرين كانوا جواسيس لمايو في صفوف بيت المهدي وحزب الأمة والأنصار. وخطة الحكومة هي الاستعانة بهؤلاء والاعتراف بكيان للأنصار موجه لتمزيق المعارضة ولتدعيم حكم نميري)أ.ه[1].

(١) نقلاً عن الورقة المذكورة بتصرف

مدونات عام ١٩٧٧م

في أجندة مكتب عام ١٩٧٧م هناك الكثير من خطط وملاحظات وأنباء وردت للحبيب، واقتطفت منها بعض المشاهد التي رأيت مناسبتها للسيرة والمسيرة.

فقد كان ضمن ما شغله نبأ إطلاق سراح بعض السيدات والسادة..

ففي ٢/ ٤/ ١٩٧٧م كتب السيد الصادق: (*سمعت نبأ إطلاق سراح سارا ووصال وحفية وصلاح، فلله الحمد، عقبى إطلاق سراح الآخرين وتفريج كربهم. لقد كان للخبر وقعاً عظيماً في نفسي فقد كان اعتقالهن يؤرق مضجعي كل يوم ساعات*).

لكن الأجندة تخبرنا أنه (يا فرحة ما تمت)، فبعد أربعة أيام، أي في ٦/ ٤/ ١٩٧٧م كتب السيد الصادق: (*علمت اليوم أن نبأ إطلاق سراح سارا وأخواتها ليس صحيحا، فعالٌ لما يريد*)..

ليس إلا بعد نحو عشرين يوماً من ذلك التاريخ حينما أطلق السراح فعلاً، ودوّن السيد الصادق في ٢٥ أبريل ١٩٧٧م: (*سمعت اليوم نبأ إطلاق سراح السيدات الحبيبات سارا، وصال، حفية والعم الحبيب عبد الرحمن النور، هذا الرجل الوفي الحبوب، فكم أنا سعيد بإطلاق سراحه، لعله يجد بعض الراحة في هذه السن والمرض، حفظه الله. أما إطلاق السيدات فإنه يزيل جمرة من مرقدي أرقت وتؤرق مضجعي كل يوم حفظهن الله، وكتب لي لقاء بهن فليس ذلك على الله ببعيد*).

استشهاد الشباب الأربعة

ومن المدونات المؤثرة في تلك الأجندة ما كان بشأن استشهاد بعض شباب المهاجرين في يوم الخميس ١٢ مايو ١٩٧٧م، ويبدو بعد كل تلك المقتلة التي حدثت العام السابق فإن الحادثة كانت مؤلمة للحبيب للغاية، فكتب التالي:

(*ذهب عبد الله أبكر يختبر سيارة بعد تصليحها فوقع حادث استشهد فيه الأحباب: علي محمد علي، أحمد الشفيع حمد، حسين إبراهيم، الصادق إسماعيل، موسى فضل المولى (الجاك)، رحمهم الله ورحمنا الله، فقد آلمني موتهم ألماً شديداً جداً. وجرح عبد الله أحمد فضل المولى، الطاهر أحمد مختار، وجرح جراحاً بسيطة جداً أرباب آدم إدريس*

وعبد الله أبكر. تم دفن الشهداء الأربعة في مدخل الرباط ورقدوا كل اثنين في قبر يوم الخميس. لله ما أعطى ولله ما أخذ:

ايموت مثل أبي شجاع فارس ... ويعيش شانئه الخصي الأقلع

هذا الشباب الطاهر المجاهد المهاجر المرابط الذي زهد الدنيا وما فيها، عرسان دنيا كأحسن ما يكون الفتيان، وهبوا حياتهم لمرضاة الله وإنقاذ الوطن.. هم زين شباب الجنة ذهبوا رضي الله عنهم ورضوا عنه، ف ﴿ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾. اللهم وفقني لأنقذ هذا الشباب الطاهر وأمكنه أن يوجه طاقاته الباهرة في عمارة السودان الروحية والمادية فهل إلى ذلك من سبيل؟ إن العين لتدمع وإن القلب ليتوجع، وإن الأمل في الله أوسع، و﴿لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾.

هكذا إذن مرت على السيد الصادق وزملائه أيامٌ مرة بطعم العلقم. لقد شمروا وكبروا للجهاد، فأريقت دماء عزيزة، ثم كانت النتيجة مزيداً من القهر والإذلال للشعب، ولأهلهم على وجه الخصوص. ولكنهم إذ أظهروا تلك القوة وتلك المقدرة هزوا عرش الفرعون فلم يعد يستخف بهم كما كان.. الصفحات التالية تكشف كيف أن حسابات الخسارة لدى الطرفين جعلت موائد الحوار ممكنة.